تصاعد المواجهات بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية: هل يؤدي الصراع الروسي الأمريكي لإشعال الحرب في القوقاز؟

23-8-2004

إن الإقليم يشهد صراعاً دولياً وإقليميا بين القوى الكبرى من أجل الاستئثار بثرواته، ولاسيما الثروة النفطية، ويجري حالياً إقامة مشروع ضخم لنقل النفط من حقول إنتاجه في القوقاز إلى ساحل البحر المتوسط في تركيا، حيث تسعى الولايات المتحدة لتوطيد أقدامها في المنطقة، في مواجهة محاولات الهيمنة الإقليمية لروسيا، ليس فقط من خلال القنوات الدبلوماسية، أو حتى الاستثمارات المالية، ولكن أيضاً عبر إقامة قواعد عسكرية في المنطقة، وتعتقد الولايات المتحدة أن وجودها في القوقاز ضروري لمحاصرة كل من روسيا وإيران والصين، وكلها قوى تسعى

بقلم عبدالله صالح

تصاعدت حدة المواجهات في إقليم القوقاز خلال الأيام الأخيرة بين جمهوريتي "جورجيا" و"أوسيتيا الجنوبية"، والتي أسفرت عن مصرع وإصابة المئات في القتال الدائر بين الجانبين، والذي يغذيه التدخل الروسي، حيث تساند روسيا مطالب جمهورية أوسيتيا الجنوبية، التي انفصلت عن جورجيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، في التوحد مع جمهورية أوسيتيا الشمالية التي تحظى بحماية روسيا. وكانت جورجيا قد دخلت منذ أسابيع في معركة مع إقليم "أدجاريا" الانفصالي وتمكنت من استعادة الإقليم إلى السيادة الجورجية. وتسعي الآن لاستعادة باقي الأقاليم الانفصالية التي ترفض التخلي عنها ومن بينها إقليمي "أبخازيا" و":أوسيتيا الجنوبية". وقد كرر أعضاء البرلمان في جورجيا بالأمس مطالبتهم بخروج روسيا من قواعدها العسكرية في جمهورية أوسيتيا الجنوبية ذات الحكم الذاتي، والتي تتبع جورجيا، واتهموا القوات الروسية بدعم من أسموهم بالمتمردين الانفصاليين في أوسيتيا، وردت روسيا بأن تدخلها في أوسيتيا الجنوبية يستهدف ضمان الاستقرار في هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لها، وأنها تساند الحق المشروع لأوسيتيا الجنوبية والشمالية في الاتحاد.

وبطبيعة الحال فإن روسيا لا يمكنها الانسحاب من هذه المنطقة، ليس فقط بسبب مصالحها الاقتصادية، ولكن أيضاً لاعتبارات استراتيجية، فهذه الجمهوريات جميعها تعد إرثاً سوفيتيا سابقاً، كما أن أوسيتيا الشمالية مازالت جمهورية ذات حكم ذاتي تابعة لروسيا، فضلاً عن أن حدود روسيا تلاصق تماماً جمهورية أوسيتيا الجنوبية، ومن ثم فإن الأوضاع الجيوبوليتيكية في المنطقة معقدة ومتداخلة للغاية، حيث تقع كل من جورجيا وأوسيتيا الجنوبية والشمالية على السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، وهذه المنطقة هي آخر الحدود الجنوبية لروسيا، وتضم كيانات سياسية أربعة: الاتحاد الروسي بما يحتويه من عشرات المناطق والجمهوريات ذات الحكم الذاتي، وجورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان. وهذه الجمهوريات الثلاث الأخيرة تضم خليطاً متنوعاً من السكان يزيد عن الثمانين عرقا، وخاصة في جورجيا، فإضافة إلى الجورجيين الذين يمثلون الأغلبية، تعيش أعراق أخرى كالأرمن والروس والأذربيجانيين والأوسيتيين واليونانيين والأبخاز والأوكرانيين.

وعلى الرغم من أن شعوبا عديدة في العالم نمت وتطورت في ظل تنوع عرقي ولغوي فإن جورجيا، مثلها مثل كثير من دول آسيا، عانت الصدامات بين الأعراق تحت دعاوى مختلفة كالتمييز والاضطهاد والاستبعاد من السلطة، وانتهى الأمر إلى حروب دامية أسقطت آلاف القتلى وأدت إلى فرار عشرات الآلاف تحت صور شتى من التطهير العرقي.

وبالإضافة إلي ذلك، فإن الإقليم يشهد صراعاً دولياً وإقليميا بين القوى الكبرى من أجل الاستئثار بثرواته، ولاسيما الثروة النفطية، ويجري حالياً إقامة مشروع ضخم لنقل النفط من حقول إنتاجه في القوقاز إلى ساحل البحر المتوسط في تركيا، حيث تسعى الولايات المتحدة لتوطيد أقدامها في المنطقة، في مواجهة محاولات الهيمنة الإقليمية لروسيا، ليس فقط من خلال القنوات الدبلوماسية، أو حتى الاستثمارات المالية، ولكن أيضاً عبر إقامة قواعد عسكرية في المنطقة، وتعتقد الولايات المتحدة أن وجودها في القوقاز ضروري لمحاصرة كل من روسيا وإيران والصين، وكلها قوى تسعى للعب دور متزايد في القوقاز، كما يبحث الناتو حالياً طلباً تقدمت به جورجيا للانضمام إلى الحلف، على الرغم من المعارضة الروسية.

ولكن التغلغل الأمريكي في المنطقة يثير مخاوف روسيا التي تعتبر القوقاز بمثابة مجال حيوي لها، حيث يعد وجودها القوي في القوقاز أمراً حيوياً للحفاظ على أمن جوارهم القريب وحدودهم الجنوبية والجنوبية الغربية، فضلاً عما تحتويه المنطقة من ثروات هامة، وعلى رأسها النفط، حيث تشكل منطقة القوقاز ثاني منطقة على مستوى العالم من حيث الاحتياطيات النفطية بعد منطقة الخليج العربي، إضافة إلى ذلك فإن هذه المنطقة توفر معبراً لروسيا إلي مياه البحر الدافئة.

ومع ذلك فإن جورجيا تعد الآن الجمهورية الأفقر بين كافة الجمهوريات التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق، حيث لا

تتوافر بها الكثير من مرافق البنية الأساسية، ويعاني شعبها تدهوراً مستمراً في مستويات المعيشة، حيث يقل متوسط دخل الفرد عن 600 دولار سنوياً، كما ترتفع معدلات البطالة لأكثر من 25%، وينتشر بها الفساد المالي والرشوة بدرجة كبيرة، على نحو دفع إلى إنشاء صندوق مالي سمى بصندوق مكافحة الفساد، يمنح موظفي الدولة مكافآت شهرية لسد احتياجاتهم، إلا أن هذا الصندوق بدوره قد تعرضت إدارته للفساد، وأصبحت أمواله توزع على ذوى الحظوة وكبار المسئولين.

وكان الرئيس الجورجي "ميخائيل ساكاشفيلي" قد تعهد، إثر انتخابه كرئيس للبلاد في يناير الماضي، باستخدام القوة للحيلولة دون تفتت البلاد، وأكد عزمه على تأكيد السيطرة المركزية لجورجيا على أوسيتيا الجنوبية وإقليمين آخرين متمردين هما أدغاريا وأبخازيا. وقال إنه لن يقبل بتحويل بلاده إلى ميدان للصراع بين مختلف القوى العظمى، مشيراً إلى إنه يسعى في مقابل علاقاته الدافئة مع واشنطن إلى إقامة علاقة جيدة مع موسكو واستعادة وحدة جورجيا.

ورغم أن نجاح "ساكاشفيلي" في الانتخابات لم يقابل بالترحاب من جانب شعب أوسيتيا الجنوبية، فقد بدأ الرئيس الجورجي في محاولة التقرب من أوسيتيا الجنوبية، وقد حرص في خطبه على مخاطبتهم "كإخوة" وتحدث باللغة الأوسيتية. وبدأ التلفزيون الحكومي الجورجي البث باللغة الأوسيتية، كما قدم "ساكاشفيلي" بعض المساعدات الاقتصادية لأوسيتيا، وبدأ العمل لإحياء خط السكة الحديد المتوقف منذ زمن طويل بين البلدين.

ولكن هذه الجهود قوبلت بالشك من جانب أوسيتيا الجنوبية، باعتبارها استراتيجية أحادية الجانب تنفذ دون التنسيق مع المسئولين في أوسيتيا. ولم تسهم الزيارة غير المتوقعة التي قامت بها زوجة الرئيس الجورجي لأوسيتيا، إلا في زيادة هذه الشكوك. وعقب الزعيم الأوسيتي "إدوارد كوكويتي" على زيارة زوجـة"ساكاشفيلي" لبلاده قائلاً: "لا أحد دعاها ولا أحد توقع زيارتها".

وقد ناشد الرئيس الجورجي الدول الغربية التدخل لمواجهة التغلغل الروسي في الإقليم، مشيراً إلى أن الأزمة المتصاعدة في أوسيتيا الجنوبية يمكن أن تجد طريقها للحل إذا قام الغرب بممارسة ضغوط على روسيا لوقف دعمها للانفصاليين في المنطقة والذين يسعون للاستقلال عن جورجيا.وشدد "ساكاشفيلي" في لندن، عقب محادثاته مع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، على أنه يمكن حل هذه القضية في غضون ستة أشهر، إذا قام الغرب بهذا الدور على النحو الذي يندمج فيه السكان في أوسيتيا الجنوبية في الجمهورية الجورجية.

ومن جانب آخر فقد حرص الرئيس الجورجي على تدعيم علاقاته بالولايات المتحدة من أجل الحصول على مساندتها في مواجهة ما أسماه بالمطامع الإقليمية الروسية، مما سهل له الحصول على مساعدات اقتصادية، بلغت خلال العام الماضي نحو 400 مليون دولار، كما قامت الولايات المتحدة بإنشاء عدد من القواعد العسكرية في جورجيا، بدعوى تعقُّب أكثر من سبعة آلاف مقاتل من تنظيم القاعدة فروا إلى جبال القوقاز، إضافة إلى تقديم الدعم الفني والتدريب للقوات المسلحة الجورجية.

ورغم أن التغلغل الأمريكي في جورجيا وصل إلى حد تواجد القواعد العسكرية الأمريكية في مواجهة القواعد الروسية، فإن روسيا التي تعارض هذا التدخل، مازالت غير راغبة الآن في الدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة في ظل ما تعانيه من أوضاع اقتصادية سيئة، وتفضل مواصلة مساعيها السلمية للتقارب مع دول القوقاز وتدعيم التعاون معها، بما يضمن الحفاظ على الحد الأدنى من مصالحها فى المنطقة.

للعودة للأعلى